(تجربة حياة)

obeikandl.com

obeikandl.com

تجربة حياة (١)

ولدتُ لأبٍ فلاحٍ بسيط، مثله مثل أبناء قريته، كانت حال الناس واحدة تقريباً، لم تظهر الفوارق المعيشية إلا لاحقاً، بعد وصول السيارات، والقيد في العسكرية والانتساب للوظائف التي أصبحت مجزية أكثر مقارنة بتلك المزارع وبذلك الشقاء المستمر.

كنت الابن الأول بعد ابنتين، وسبقهما ابن اسمه (صالح) لكنه مات صغيراً، فسمّاني أبي باسمه.

في قريتي الوادعة البسيطة الجميلة بدأت تتشكل حياتي، فتحت عيني على أرض خضراء دائمة المطر، تجري فيها الأودية والعيون من كل صوب، والمناهل (الكظايم) لا تنقطع على مدار العام.

عشت بين جبال تكسوها الغابات، وسهول وافرة المراعي، وأرض خصبة لا يكاد ينتهي جناها صيفاً وشتاءً، امتزجتُ بطين الأرض، شربتُ ماء السماء وماء الخلجان والفلجان، لعبت مع، وعبثت بالطيور، والأغصان، وبعد أن كبرت قليلاً بدأت، مثلي مثل أقراني، بمعاونة الأهل بما يتيحه جهدنا كأطفال، (حرثتُ) بالثيران، دمست، قصّبت، سقت، كلأت، حميت، صرمت، دست، ذرّيت، سفيت الدمن على ظهور الحمير، وردت البئر بالدلاء، وحملت قرب الماء مع والدتي، وحملت معها (عصام) الحطب والحشائش من تلك الجبال الكريمة العظيمة، جنيت اللوز والمشمش والخوخ، قطفت العنب والرمان، بنيت مع أبي ما ينثلم من المساطب (العراق)، بشّرت الأرض، نقّيت العدس (البوسن)، وفقّشت اللوز، وعصرت العسل بيدي، و(هبطت) مع أبي سيراً على الأقدام إلى سوق النقعة،

obeikandl.com

وكان كل يوم سبت، وسوق الصفح وكان كل أربعاء، وسوق الخميس بالباحة، وسوق المندق، وسوق القريع ببني مالك لبيع أو شراء الأغنام.

عشت في بيتنا الحجري ذي الأدوار الثلاثة وشاهدة المجد التليد، في ظلام دامسٍ إلا من بعض ومضات الحطب المشبوب في (الملّة)، ثم عايشت (القازة) وبعدها (الإتريك) ثم الكهرباء الأهلية، ثم الكهرباء العامة.

ركبت الدواب، ثم (تبعشكت) في صندوق أول تويوتا أو قلاب أو هايلوكس يمر بالقرية، اشترى بعدها عمّي سيارة ٧٥ فشعرت بأننا أصبحنا أغنياء.

رعيت الغنم، لقّمت الثيران، أكلت الحماط والزيدة والعثرب والتوت البري وأغصانه الرطبة (الشخاميت) والشبارق وحبات الشثن والنبق والنئم وأغصان السيسبان والقضب والصقلة والقرّاص، و(شوّطت) الذرة الصفراء والحمراء والبيضاء وسنابل القمح (الحنكيته) وفركت السنابل قبل نضوجها بقليل وأكلتها خضراء، وعضضت القصب لأحظى بقليل من السكّر.

طاردت أعشاش الصرصر واصطدت الكبيدة (القمري) والفرفر والقبرة وعروس الطير والقواريز والنسور، نصبت الكمائن بالحجارة ثم (المطبة) للغبري وللنَّهِس على وجه الخصوص.

لعبت بكرة الشراب، وبالكرة المشقوقة، مع أقراني في الطين والماء، تسبّحت في الغدران والآبار والوجار في عزّ الشتاء، عصيت أبي كثيراً حباً في اللعب، وكنت أتلقى منه (اللطشة) تلو اللطشة ولا أبالي، رحمك الله رحمة الأبرار يا أبي، فأنا أحبك وأحبك وأحبك وأسامحك من كل قلبي، بل لو عادت الأيام لأهديتك حياتي أيها المزارع البسيط الأمي الحبيب، فأنا أدرك الآن لماذا كنت تضربني هكذا، أعرف يا أبي تماماً أنك كنت تريد أن يكون ابنك (نشمياً)، وأن يقول له الناس: (ونعم).

كانت تلك طفولتنا الرائعة، ويالها من طفولة، يا له من جوع، ويا لها من أَنفَة

في النفوس، يا له من فقر، ويا له من غنى بالقناعة، يا له من شقاء، ويا له من فرح بريء.

إننا حين نشتاق إلى الماضي فإننا لا نشتاق للفقر والجهل والمرض والشقاء، وإنما نشتاق لطفولتنا الجميلة ولأحلامنا البريئة .. يااااه، كلما أتذكر قريتي وطفولتي يغالبني البكاء.

قلت في إحدى قصائدي التي بعنوان منزل الذاكرة:

إذا تذكرتُ أيام الصبا ساعة
هممت بالموت لولا خشية الآخرة

وقلت في أخرى :

قريتي
يا طعم أجدادي
ويا صوت المعاول حين يأتي الصبح
والمحراث والمحراب
يا أنشودة الراعي على سمر الهضاب
قريتي
ما زلت طفلاً
مثلما كنتُ
شغوفاً بالتراب

وأقول في أخرى وهي فصيح على (طرق المسحباني)

عظامُ سيري أمامي
إلى رحاب القبيلةْ
بالله ردّي سلامي
على أمانٍ جميلةْ

obeikandi.com

على وجوه الصبايا
إذا بلغن المقيلةْ
على زمانٍ تولى
وعودةٍ مستحيلةْ

obeikandl.com